أركـان للدراسات والأبحاث والنشر
Arkan for Studies Research and Publishing

هل يشكل الإيمان فارقًا؟
رصد عمل الإغاثة الإنسانية الإسلامية مع اللاجئين والمشرَّدين داخليًّا

إعداد
نادية كرماني أجاز احمد خان

ترجمة
منة التلاوي

مقدمة المترجم:

لطالما حظيت قيمة «إغاثة الملهوف» بصدًى مهمًّا في الإسلام، فاقترنت في أذهان المسلمين وتصوراتهم بأن مُجِيرَ الملهوف يجيره الله من كل كرب وسوء. كما حث كثير من الأحاديث وشواهد السيرة على تلك القيمة الإسلامية؛ فقد جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ ولا يُسْلِمُهُ، مَن كانَ في حاجَةِ أَخِيهِ كانَ اللَّهُ في حاجَتِهِ، ومَن فَرَّجَ عن مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فَرَّجَ اللَّهُ عنْه بها كُرْبَةً مِن كُرَبِ يَومِ القِيامَةِ، ومَن سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَومَ القِيامَةِ»[1]. وغَنِيٌّ عن البيان ضرورة تكافل المجتمع المسلم، ولعل الزكاة شاهد لا مراء فيه على ذلك، فَيُجَار الفقراء وتُسَدُّ حوائجهم بأموال الأغنياء، وذلك حق مكفول للفقراء في الشريعة لا تَفَضُّل فيه أو مِنَّة من الأغنياء عليهم، بل هو فرض استحق أن تُشَنَّ لأجله حروب الردة في الإسلام.

وإن كان التكافل المجتمعي هو الأصل في المجتمع المسلم الطبيعي، فما بالك بمجتمع مسلم في حالة كَرْبٍ بسبب حرب أو صراع أو فيضان أو مجاعة؟ والحقيقة أن العمل الإغاثي الإنساني قديم معروف ولم يكن للمسلمين فيه بصمة عالمية، ربما لاستئثار الجهات الغربية العلمانية بدعم مالي ضخم للغاية أحبط غيرها من المساعي، وربما لأن المنظمات الإسلامية لم تلقَ ما لقيته غيرها من الدعم والتأييد. وغالبًا ما نظر الغرب إلى كل ما هو إسلامي نظرة المشتبه به؛ ربما لأن الوطن الإسلامي نفسه يعاني نكبة إثر نكبة، فتفتَّتت جهود المساعدة الإسلامية الإغاثية وذابت في عدة ثغور بدلًا من أن تُوَجَّه نحو نكبة واحدة.

وليس من الخفاء بمكان أن المجتمعات المسلمة التي مزقتها الحروب ظلت خائفة من الآخَر ومن الغربيِّ على وجه التحديد، لدرجة أنها لم تعد قادرة على التفرقة بين غربيٍّ قادم إليها بسلاح ناري ومُجَنْزَرة عسكرية وغربيٍّ آخَر آتٍ بغذاء ودواء، فظلت هناك جفوة لا يمكن إنكارها بين مقدمي الإغاثات ومستقبليها. علاوة على تهميش الحاجات الروحية والثقافية والدينية للاجئين وهي لا تقل أهمية عن المعونات العينية، فظل اللاجئون مستشعرين الوحشة والغربة ولو لُبِّيَتْ حاجاتهم المادية كلها.

وفي الحقيقة، فاللجوء والهجرة من الظلم والقهر والمرض ليست وقائع دخيلة على الشريعة الغراء، بل على العكس، فللهجرة وترك مكان الظلم منزلة مقدسة في نفوس المسلمين، ولِمُجِيرِي المهاجر منزلة خاصة كريمة؛ فحين هاجر النبي -صلى الله عليه وسلم- تعرض لصنفين من مستقبِلي اللاجئين: أولهما أهل

---

* هذه الدراسة صادرة عن مجلة Refugee Survey Quarterly، ومنشورة بموقعها الإلكتروني بتاريخ ٤ يوليو ٢٠٠٨، بعنوان: Does Faith Matter: An Examination of Islamic Relief's Work with Refugees and Internally Displaced Persons، على الرابط: (https://ln.run/G8ocA).

١ أخرجه البخاري في صحيحه (٢٤٤٢/ كتاب المظالم والغصب)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

الطائف الذين رفضوا بقاءه بينهم وآذوه، وآخرهما أهل يثرب الذين استقبلوه بحفاوة وأكرموا نُزُلَه. ومن هنا كان لتأمين المهاجر أو اللاجئ بالمفهوم الحديث تلك الحفاوة في التراث الإسلامي وفي منظومة القيم الإسلامية بشكل عام، إلى حَدِّ أن الحديث الشريف يَكْفُلُ لمن أَمَّن مسلمًا جزاءه بأن يُؤَمِّنَه الله -عز وجل- يوم الفزع الأكبر، فيقول -صلى الله عليه وسلم-: «مَن نَفَّسَ عن مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِن كُرَبِ الدُّنْيَا، نَفَّسَ اللَّهُ عنْه كُرْبَةً مِن كُرَبِ يَومِ القِيَامَةِ، وَمَن يَسَّرَ علَى مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللَّهُ عليه في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَمَن سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللَّهُ في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ»[٢].

ومن هذه المُثُل والقيم الإنسانية اسْتَقَت منظمة الإغاثة الإسلامية قِيَمها، وأضافت تحديدًا واضحًا لهويتها الإسلامية في اسمها؛ لتدل على نهجها الإسلامي في إغاثة الملهوف وتوجه جهودها لدعم اللاجئين وإعادة إعمار ما أفسدته الحرب وتنمية المناطق التي مزقتها الصراعات، لا للمجتمعات المسلمة وحسب بل لكل المجتمعات المحتاجة في المناطق المنكوبة سواء بسواء. ليتحول المسلمون من طالبي مساعدة إلى مانحيها ومقدِّميها.

تنظر الدراسة في رحلة منظمة الإغاثة الإسلامية، حيث تأسست المؤسسة على يد المهندس المصري هاني البنا عام ١٩٨٤، لتتوسع المنظمة حتى انتشر وجودها في ٤٨ دولة حول العالم، ولتصبح شريكًا مجتمعيًّا فعالًا يثبت كفاءته وجدارته في العمل الإغاثي العالمي؛ إلى الحَدِّ الذي جعل مؤسسات إغاثية كبرى تسعى للتعاون معه. وبالطبع لم يكن الطريق ممهدًا أمامها للإنجاز- بل تعرضت لصعاب وعقبات. وكما استفادت من سَمْتها الديني فقد واجهت شكوك ومشكلات تتعلق بنهجها الإسلامي ونظرة مَفَادها أن كلَّ ما هو إسلامي؛ «إرهابيٌّ» محتمل. تنظر الدراسة في التجربة كاملة ويحاول تقييمها، ويناقش في إطار هذه المحاولة أهمية الدين في العمل الإغاثي وجدوى السَّمْت الديني للمنظمات الإنسانية، وهل مِن الإنسانية التجاهل المتعمَّد لاحتياجات المسلمين الدينية؟ وكيف يمكن للدين أن يكون حاضرًا بقوة في إطار إنساني ينافي التمييز على أساس الدين أو اللون أو العرق؟

تمهيد:

غالبًا ما يُولِي اللاجئون والمشردون داخليًّا أهمية بالغة للأمور المتعلقة بالدين والعقيدة، كما تلعب المنظمات الدينية دورًا محوريًّا على نحو متزايد في القيام بأعمال دعم اللاجئين في مختلف بقاع العالم. ورغم ذلك، فإنه لم يصدر سوى القليل من الأعمال الأكاديمية؛ لاستكشاف عمل المنظمات الدينية مع اللاجئين والمشردين داخليًّا. ترصد هذه الدراسة تجربة إحدى المنظمات الدينية، هي منظمة الإغاثة الإسلامية على وجه التحديد، وهي منظمة منوطة بالعمل مع اللاجئين والمشردين داخليًّا في شتى بقاع الأرض. تكشف تجارب هذه المنظمة الغطاء عن أهمية الإيمان سواء من حيث بناء الثقة بين أفراد مجتمعات اللاجئين أو استيعاب حساسيتهم المتفاقمة بخصوص احتياجاتهم الروحية. تُبَيِّن الأمثلة المستشهَد بها

٢ أخرجه الترمذي في سننه (١٩٣٠/ كتاب أبواب البر والصلة)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

إمكانية التعاون بين الأديان عبر المنظمات الدينية، وأهمية هذا التعاون في المناطق التي شهدت صراعات. وأخيرًا، تُبيِّن تجارب الإغاثة الإسلامية كذلك التعقيدات محتملة الظهور بناءً على توجهها الديني في سياقات بعينها.

تحلل هذه الدراسة تجربة منظمة دولية غير حكومية هي منظمة الإغاثة الإسلامية؛ التي تعمل مع اللاجئين والنازحين داخليًا ولصالحهم. ورغم اضطلاع المنظمات الدينية بالكثير من العمل الإغاثي حول العالم، وبينما تشكل الهوية الدينية عاملًا مهمًا في فهم المجتمعات في كثير من الأحيان، فإن القليل من الأعمال قد تطرَّقت لدراسة المنظمات الدينية في مجال التنمية بشكل عام[٣]، والأقل منها قد تطرَّق إلى المساعدة المقدمة للاجئين على وجه التحديد. كما تحاول هذه الدراسة سَدَّ جزء من الفجوة بدراسة عمل الإغاثة الإسلامية بالتحديد بصفتها إحدى المنظمات الدينية التي تقدم مساعدات للاجئين والمشردين داخليًا في سياقات متعددة ومتنوعة. تُظهر محاورة فريق عمل الإغاثة الإسلامية -العاملِ في سياقات مختلفة- أن مؤسسة الإغاثة الإسلامية تحظى بميزة أنها منظمة دينية تعمل مع المجتمعات المسلمة في العديد من الحالات مقارنةً بالمنظمات العلمانية الغربية غير المسلمة. إلَّا أن في بعض الأحيان يُعَقِّد تعريف المنظمة بوصفها «منظمةً إسلاميةً» تجربةَ الدخول إلى المجتمعات، وخاصة لدى السلطات المحلية وغيرها من المنظمات الدولية غير الحكومية.

عقب مناقشة مرجعية موجزة بخصوص حماية اللاجئين في الإسلام، علاوة على نظرة عامة على العمل الإغاثي الإسلامي، ستُلقي الدراسة نظرة أوثق حول ما إذا كان لمنظمة الإغاثة الإسلامية امتياز الوصول المُيَسَّر عند التعامل مع اللاجئين المسلمين بوصفها منظمة دينية إسلامية أم لا.

الإسلام واللجوء:

ولأن منظمة الإغاثة الإسلامية تهتدي بالقيم الإنسانية الإسلامية في عملها مع اللاجئين، فَحَرِيٌّ بنا أن نعرض بإيجاز مفهومَ اللجوء في الإسلام والالتزامات الملقاة على عاتق المسلمين في استقبال اللاجئين.

أشار العديد من الفقهاء إلى وجود قيم إنسانية للإسلام[٤]. وبالنسبة إلى اللاجئين تحديدًا فلمسألة التشريد القسري صدى خاص في الإسلام، لاسيما في ضوء حقيقة أن النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- ذاته كان

3 Tomalin, Emma, "Religion and a Rights-Based Approach to Development", *Progress in Development Studies*, Vol. 6, 2006, 93–108.
Thomas, Scott M. *The Global Resurgence of Religion and the Transformation of International Relations: the Struggle for the Soul of the Twenty-First Century*, New York, Basingstoke, Palgrave MacMillan, 2005.

4 An-Na'im, Abdullah, *Towards an Islamic Reformation: Civil Liberties, Human Rights and International Law*, Syracuse, Syracuse University Press, 1990.
Mirbagheri, Farid, "Islam and Humanitarian Values", *Refugee Survey Quarterly*, Vol. 21, 2006, 139–149.

لاجئًا؛ فقد غادر من مكة مع أصحابه مهاجرًا هربًا من الاضطهاد عام ٦٢٢م. كما يمثل هذا الحدث المعروف باسم «الهجرة» بداية التقويم الإسلامي. وحظي اللاجئون الفارون من مكة بمنزلة مشرفة في القرآن وعُرفوا بـ«المهاجرين». وعلاوة على ذلك، فقد لقي أولئك الذين استقبلوهم بحفاوة احترامًا بالغًا وعُرفوا بـ«الأنصار» أي أنصار النبي وأتباعه[٥]. كما يجب ذكر نُصْح النبي للفارين من الاضطهاد الديني في مكة بالسفر إلى الحبشة؛ حيث سعوا إلى الحصول على الملاذ لدى النجاشي الحاكم المسيحي. تشير قصة الهجرة ومركزيتها في أُسس الإسلام إلى الأهمية الممنوحة لمفهوم حماية اللاجئين وإيوائهم.

اللجوء في الإسلام حقٌّ لكل من يطلب الحماية. يطرح غسان معروف الأرناءوط في مَعرض دراسته عن اللجوء في التقاليد العربية الإسلامية أن اللجوء «جزءٌ لا يتجزأ من المفهوم الإسلامي لحقوق الإنسان»[٦] كما أن مصطلح الأمان متأصلٌ في الشريعة الإسلامية، ينطوي على حقوق اللاجئين وطالبي اللجوء والواجبات الواقعة على عاتق مُضِيفِيهم[٧]. حيث تحدث القرآن صراحة عن مسألة طالبي اللجوء واللاجئين في قوله تعالى:{ وَإِنۡ أَحَد مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡم لَّا يَعۡلَمُونَ } [سورة التوبة: الآية ٦]. كما تؤكد الشريعة على عادة توفير الملاذ للمضطهدين، وحُرْمَة بعض الأماكن مثل الكعبة المشرفة. فأَيَّما شخص قد طلب اللجوء لمسجد أو لمنزل أحد صحابة النبي محمد فهو آمن ومحمي. ومع ذلك فاللجوء في نظر الشريعة الإسلامية ليس قاصرًا على الأماكن المقدسة وحسب، فالإسلام يُكْفُله في المنازل والأماكن العامة الخاضعة لحماية الإسلام. ويتعين توفير اللجوء دون التمييز بين الأحرار والعبيد أو الأغنياء والفقراء أو الرجال والنساء أو المسلمين وغير المسلمين. يشير ابن العربي أحد متصوفة الإسلام في القرون الوسطى إلى أن توفيرَ اللجوء أمرٌ إلزاميٌّ تجاه الفارين من الدول التي يطغى فيها الظلم والتعصب والاضطهاد الجسدي والمرض وانعدام الأمان المالي[٨].

من الجَلِيِّ إذن أن الشريعة الإسلامية تشجع النهج الإنساني في التعامل مع اللاجئين وطالبي اللجوء والنازحين داخليًّا، ومن هذه المُثُل الإنسانية الإسلامية تستلهم الإغاثةُ الإسلاميةُ وَحْيَهَا.

5 Abu-Salieh, Sami A. "The Islamic Conception of Migration", *International Migration Review*, Vol. 30, No. 1, Spring 1996, 37–57.

٦ غسان معروف الأرناءوط: **اللجوء في التقاليد الإسلامية**، مفوضية الأمم المتحدة لشئون اللاجئين، المعهد الوطني للقانون الدولي الإنساني، جنيف.

٧ المرجع السابق.

8 Eickelman, Dale F. and Piscatori, James, (eds.), *Muslim Travellers: Pilgrimage, Migration, and the Religious Imagination*, New York, Routledge, 1990.

طبيعة ونطاق عمل منظمة الإغاثة الإسلامية مع اللاجئين:

منظمة الإغاثة الإسلامية منظمة دولية للإغاثة والتنمية يقع مقرها الرئيس في برمنجهام بالمملكة المتحدة، وتأسست عام ١٩٨٤؛ استجابةً للمجاعات التي أضرت بدول القرن الإفريقي. ومنذ تأسيسها عملت على توسيع نطاق أعمالها إلى حَدٍّ كبير، وأصبح للمنظمة حاليًا برامج إغاثة طارئة وبرامج تنمية طويلة المدى في ما يزيد عن خمس وعشرين دولة في إفريقيا وآسيا والشرق الأوسط وأوروبا الشرقية. ويُعَدُّ تقديم المعونات الأساسية جزءًا لا يتجزأ من أنشطتها بالتنسيق مع جهات مثل برنامج الأغذية العالمي والمفوضية السامية للأمم المتحدة لشئون اللاجئين، وتشمل تلك المعونات توفير الملجأ والغذاء والماء والمرافق الصحية للاجئين والمشردين داخليًا في المناطق المتأثرة بالصراعات والكوارث الطبيعية. خلال الأعوام الأخيرة، عملت منظمة الإغاثة الإسلامية مع اللاجئين والنازحين داخليًا في بقاع عدة مثل: البوسنة والهرسك وكوسوفو والشيشان وإنغوشيا (الاتحاد الروسي) والسودان ومالي وأفغانستان ولبنان والأردن والعراق وباكستان. ورغم أن منظمة الإغاثة الإسلامية تعمل مع المسلمين بشكل أساسي في الكثير من مواضع عملها، فإنها لا تُمَيِّز بناءً على الدين وتقدم المساعدة للمجتمعات غير المسلمة كذلك.

وتقدم منظمة الإغاثة الإسلامية أنواعًا شتى من المساعدات للاجئين والنازحين، منها توفير المياه والمرافق الصحية والمأوى وتوزيع الغذاء والمواد غير الغذائية والخدمات الصحية الأساسية ورعاية الأيتام. وبينما تخصص المنظمات غير الحكومية الأخرى أنواعًا معينة من المبادرات، كانت منظمة الإغاثة الإسلامية تميل في الماضي إلى سَدِّ الاحتياجات الأساسية وتسخير أفضل قدراتها وفقًا لموضع عملها. ورغم ذلك، أصبحت في الأعوام الأخيرة أكثر تخصيصًا وتركيزًا على قطاعات بعينها؛ بحيث تكون قادرة على تقديم مساعدة أكثر فاعلية. وعلى سبيل المثال، فقد أنشأت المنظمة ثلاثة مراكز صحية في إنغوشيا، وركزت جهدها على توفير المياه والمرافق الصحية في إقليم دارفور بالسودان، ولعل زيادة التخصص من حيث قطاعات عملها يعكس نُضْجَ المنظمة المتنامي وخبرةَ فريق عملها.

كما أن مساعدتها الإنسانية قد تكون قصيرة المدى نسبيًّا في بعض الأحيان فتستمر شهورًا قليلة وحسب، وقد تُطَوِّر برامج معقدة في أحيان أخرى تهدف إلى مساعدة اللاجئين والنازحين على مدار عدة أعوام. وبشكل عام، تعمل منظمة الإغاثة الإسلامية مع اللاجئين في تلك الدول التي مارست فيها المنظمة برامج وأعمالًا مسبقة لها. وكذلك ففي بعض الأحيان، تقدم المنظمة المساعدة للاجئين عبر منظمات أخرى إذا لم يكن لها أعمال سابقة في أماكن وجودهم.

إن المساعدات الإنسانية لمنظمة الإغاثة الإسلامية قابلة للتكيُّف مع مختلف الظروف، ولذا فحين اكتمال مرحلة الطوارئ لعمليات الإغاثة يتحول التركيز إلى برامج تنمية أطول أمدًا، ونادرًا ما تُوقِفُ منظمة الإغاثة الإسلامية عملياتها في منطقة ما بمجرد انتهاء مرحلة الطوارئ. ويُعَدُّ العمل الإغاثي الإسلامي في البوسنة والهرسك مثالًا لذلك؛ حيث بدأت المنظمة في تقديم المعونات الإنسانية للاجئين والنازحين من

مناطق الصراع في البوسنة والهرسك عام ١٩٩٢، ثم استمر توزيع الغذاء والمواد غير الغذائية بين عامَي ١٩٩٢ و١٩٩٥. وفي أعقاب الصراع مباشرة، انصب تركيز المنظمة على تعزيز عودة اللاجئين عبر إعادة إعمار المنازل والمدارس والعيادات الطبية التي دمرتها الحرب.

وفي السنوات الأخيرة، تحول التركيز مرة أخرى؛ حيث ركزت منظمة الإغاثة الإسلامية على التنمية بعيدة المدى بدعم تأسيس المشروعات الصغيرة في مناطق العودة تحديدًا، عبر برنامج ائتماني صغير قائم على مبادئ التمويل الإسلامي. وقد استكملت ذلك بعلاج اضطراب ما بعد الصدمة لأولئك اللاجئين الذين لا يزالون يعانون جراء تجربتهم خلال الصراع وبعده. ولا تزال منظمة الإغاثة الإسلامية واحدةً من المنظمات غير الحكومية قليلة العدد نسبيًا العاملة في البوسنة والهرسك، مما يظهر ارتباطها طويل الأمد بالمجتمعات التي تخدمها.

قيمة الدين في دراسات اللاجئين:

رغم أن كثيرًا من المنظمات ذات السبق في أعمال دعم اللاجئين منظمات دينية، فإن القليل جدًّا من العمل الأكاديمي المتاح قد تصدى لدراسة أعمال هذه المنظمات ومدى عمقها. يشير «جان فرانسوا ماير» في مقدمته لقضيةٍ خاصةٍ في المنشور الفصلي عن حالة اللاجئين إلى أهمية الدين في فهم تجربة اللاجئين والنازحين داخليًا[٩]. وفي الوقت ذاته تَأْسَف «جودزياك» لنقص تحليل دور الدين في مجال دراسات اللاجئين حيث تقول:

«تدعم المعتقدات والممارسات الدينية والروحية كثيرًا من اللاجئين في عملية التشريد والتهجير القسري والاندماج في المجتمع المضيف، ومع ذلك فلا يزال الدين والروحانية غائبَيْن عمليًّا في المناقشات السياسية وبرامج اللاجئين والمُهَجَّرين قسريًّا»[١٠].

وكما أظهرت «جودزياك» في دراسة عن اللاجئين الألبان من كوسوفو، فإن الإيمان يشكل فارقًا لا مِرَاء فيه للكثير من اللاجئين وطالبي اللجوء. ومع ذلك، فغالبًا ما تخجل المنظمات غير الحكومية والعاملون في مجال دراسات اللاجئين من النظر في مسألة الدين؛ إما لشعورهم بأن الدين غير ذي صلة بالموضوع أو لخشيتهم من إثارة الجدل. ولذلك فهناك حاجة ماسة لفهم أهمية الإيمان؛ لتقديم مساعدة إنسانية أكثر فعالية للشعوب المصدومة في الحالات الحساسة.

ينطوي فهم مدى ملاءمة الدين لدراسات اللاجئين على النظر في أهمية الإيمان في تجارب اللاجئين

9 Mayer, Jean-François, "Introduction: 'In God Have I Put My Trust': Refugees and Religion", *Refugee Survey Quarterly*, Vol. 26, 2007, 6–10.

10 Gozdziak, Elzbieta M. "Spiritual Emergency Room: The Role of Spirituality and Religion in the Resettlement of Kosovar Albanians", *Journal of Refugee Studies,* Vol. 15, 2002, 136–152.

أنفسهم، وكذلك على النظر إلى إسهامات المنظمات الدينية في تقديم المساعدات الإنسانية إلى اللاجئين[١١]. ولأن التفكيرَ في التنمية مُقَاد بأجندة علمانية على نطاق واسع، على مستوى صناع السياسة والأكاديميين الغربيين على الأقل، فقد جرى تجاهل دور المنظمات الدينية في تقديم المساعدات التنموية في غالب الأحيان. ولكن في الآونة الأخيرة يوجد اهتمام متزايد بازدهار المنظمات الدينية في مناطق متعددة من العالم، وخاصة فيما يتعلق بالمنظمات الدينية الإسلامية. وكُتبت معظم هذه الكتابات في سياق ما بعد الحادي عشر من سبتمبر، وأحيانًا نُظر إلى المنظمات الدينية الإسلامية نظرة ريبة بوصفها «حلقات إرهابية» محتملة.

يدفع «جوناثان بينثال» بأن هناك ردة فعل مبالغ فيها على نطاق واسع من المتبرعين والمنظمات غير الحكومية والأكاديميين الغربيين. ويشير البحث الذي أجراه إلى المساهمات الإيجابية للمنظمات الدينية الإسلامية، وجاء فيه: «تشير أدلة المسح إلى تمتع «المنظمات الدينية الإسلامية» بدرجة عالية من الثقة والتأييد الشعبيين والتشغيل بأقل تكاليف إدارية وامتلاك معرفة لا مثيل لها باحتياجات الفئات الأشد تأثُّرًا».[١٢]

ولذلك، فثمة إقرار متزايد بالعمل الذي تؤديه المنظمات الدينية في هذا المجال، وأهمية فهم دور المنظمات المعنية بجهود التنمية.

تجربة منظمة الإغاثة الإسلامية باعتبارها منظمةً دينيةً:

تحاول هذه الدراسة الجمع بين هذه القضايا من خلال النظر إلى منظمة الإغاثة الإسلامية مثالًا للمنظمات الدينية الإسلامية التي تعمل مع اللاجئين والمشردين، والسؤال الرئيس الذي يطرحه المؤلفون هو: كيف يؤثر كونها منظمة دينية على عمل المنظمة مع اللاجئين والمشردين من حيث المجتمعات ذاتها، وكذلك من حيث تعامل المنظمة مع غيرها من أصحاب المصلحة؟ ولقد ظهرت الإجابة عبر المناقشات التي عُقدت مع فريق عمل منظمة الإغاثة الإسلامية في كلٍّ من المكاتب الميدانية ومقر المنظمة في المملكة المتحدة. وجُمعت المعلومات كذلك من تقارير منظمة الإغاثة الإسلامية وتقييماتها الداخلية. يظهر البحث أن المنظمة تعمل في بيئات متعددة مع اللاجئين المسلمين وغير المسلمين، والبيئات المسلمة وغير المسلمة، وليس هناك إجابة وحيدة على هذا التساؤل. كما تُبين الأمثلة الواردة في هذه الدراسة تأثير كون منظمة الإغاثة

11 Nawyn,Stephanie J. "Faithfully Providing Refuge: The Role of Religious Organizations in Refugee Assistance and Advocacy", Working Paper 115, *The Centre for Comparative Immigration Studies*, April 2005.
The author looks at the role of FBOs in refugee resettlement in the United States. In terms of US-based FBOs, most are Christian or Jewish, while many of the refugees arriving in the US are Muslim. Her work suggests a possible expansion of the role of Muslim FBOs in refugee resettlement in the West.

12 Benthall, Jonathan, "The Overreaction against Islamic Charities", *ISIM Review*, 20, Autumn 2007, 6–7.

الإسلامية منظمةً دينيةً على العمل الإغاثي بطرق متعددة تبعًا للحالة، ومع ذلك فإن وضع المنظمة الإسلامية منظمةً إسلاميةً مفيدٌ بشكل عام وخاصة بين المجتمعات الإسلامية من حيث تيسير إيصال المساعدات الإنسانية.

في العديد من بيئات عمل منظمة الإغاثة الإسلامية تكون المجتمعات المسلمة هي المستفيد الرئيس من المساعدات الإنسانية إلى حَدٍّ بعيد. وذكر جزء كبير من فريق عمل المنظمة حقيقة أن للمنظمة بصفتها الإسلامية ميزةً تفوق نظيراتها من المنظمات غير الإسلامية (ذات الأساس الديني أو العلماني)، وهي اكتساب القدرة على الوصول والثقة بين المجتمعات. وأحد الأمثلة الدالة هو عمل المنظمة في الصومال؛ حيث تتألف شريحة واسعة من السكان الآن من النازحين داخليًا، وحيث تكون مكاتب المنظمة جديدة نسبيًا. وعلى الرغم من الدخول الحديث نسبيًا لمنظمة الإغاثة إلى مناطق الصراع هذه، فإنها قد تمكنت من نجاحات مختلفة في قطاعات عدة من البلاد وخاصة في المناطق الوسطى والجنوبية. ويشير المطلعون إلى عمل المنظمة في الصومال إلى أهمية توصيف المنظمة بأنها «منظمة مسلمة» من حيث اكتساب إتاحة الوصول إلى المجتمعات المسلمة، مقارنة بالمنظمات العلمانية غير الحكومية أو المنظمات الدينية غير المسلمة العاملة في المنطقة.

وعلاوة على ذلك، فبصفتها منظمةً دينيةً إسلاميةً، فإنها تراعي احتياجات المنتفِعين الدينية والروحية مما يساهم في بناء الثقة في المجتمعات المحلية وربما يميزها عن غيرها من المنظمات غير الحكومية. كان من الصعب على المقتلَعين من ديارهم المشاركة في الشعائر الدينية والثقافية في أثناء رمضان والاحتفالات الدينية، وهذا من شأنه تثبيط عزيمة أولئك المتعاملين بالفعل مع آلام وصدمات التشرد. ولهذا السبب، غالبًا ما يجري تسليم طرود غذائية في شهر رمضان (شهر الصيام للمسلمين) وكذلك تنسيق توزيع الأضاحي وتوزيع اللحوم في عيد الأضحى. وبينما تتجنب الكثير من المنظمات غير الحكومية الأخرى المشاركة في مثل هذه الفعاليات الدينية والثقافية، يعتبر تسهيل منظمة الإغاثة الإسلامية أداء المجتمع لمثل هذه الشعائر اعترافًا بأهمية هذه الفعاليات في الحفاظ على العافية الروحية للمنتفعين، ولذا كان توزيع الأغذية في رمضان وتوزيع أضاحي عيد الأضحى يشكل جزءًا محوريًّا من البرامج الإغاثية العاجلة لمنظمة الإغاثة الإسلامية. كما أن توصيل الخدمات الدينية والثقافية يقوي أواصر المنظمة مع المجتمعات المحلية إلى حَدٍّ كبير.[١٣]

لقد أدركت منظمة الإغاثة الإسلامية منذ وقت بعيد أهمية كونها منظمةً دينيةً إسلاميةً، وأصبح ذلك معروفًا مؤخرًا للمعنيين بالأمر من العاملين في مجال مساعدة اللاجئين، في حين نُظِرَ إلى كثيرٍ من المنظمات غير الحكومية العلمانية والدينية المسيحية والوكالات المتبرِّعة بعين الشك في بعض الأحيان، وكان الخوف يملؤها من خشية العمل في المناطق الإسلامية. وتمتعت المنظمة بميزة من حيث مستوى الثقة التي تتمتع

١٣ وفي بعض الأحيان، كان عند اللاجئين والنازحين المسلمين توقعات إضافية ترجع إلى تعريف المنظمة بكونها منظمةً دينيةً إسلاميةً. فعلى سبيل المثال، كان هناك مطلب من اللاجئين والنازحين بتوفير نسخ من القرآن وبناء مساجد، لكن المنظمة اعتقدت أن ذلك قد يهدد حيادها؛ لذا امتنعت عن الاستجابة لمثل هذه المطالبات.

بها المنظمة في المجتمعات المسلمة، ولقد أدركت كثير من المنظمات تلك المزية وبدأت في تكوين شراكات مع منظمة الإغاثة الإسلامية؛ لتقديم المساعدات والمعونات للاجئين والنازحين في المناطق التي تشهد صراعات وانعدام أمن. ففي الصومال على سبيل المثال، عَقَدَ مكتب المفوضية الأوروبية للمساعدات الإنسانية (إيكو) شراكةً مع المنظمة عندما زار مفوض المكتب في مقديشو، ولم تساعد هذه الشراكة مكتب الإيكو في التمكن من الوصول إلى المجتمعات المحلية التي قد تكون غير راغبة في حضور الإيكو وحسب، بل أشعر فريق عمل مكتب المفوضية ذاته بارتياح لتكوين شراكة مع جهة مثل منظمة الإغاثة الإسلامية؛ لما لها من إلمام ومعرفة وثيقة بميدان العمل ولما تتمتع به من ثقة في المجتمعات المحلية.

كما تجدر الإشارة إلى أن منظمة الإغاثة الإسلامية شريكٌ يُسعى كثيرًا للشراكة معه؛ ليس بسبب وضعها باعتبارها منظمةً دينيةً إسلاميةً وحسب، بل لما لها من سجل حافل في توصيل الخدمات بنجاح.

وتُعَدُّ الشراكة مع منظمات علمانية أو منظمات دينية غير مسلمة تجسيدًا إيجابيًّا للتعاون بين الأديان في مناطق الصراع؛ ففي إنغوشيا على سبيل المثال اضطلعت المنظمة الإسلامية بعمليات ميدانية مشتركة مع منظمات دينية مثل الوكالة الكاثوليكية للتنمية ما وراء البحار (كافود) لتقديم خدمات لمخيمات المشردين في الشيشان. وقد استُقبل هذا التعاون بترحاب كبير من النازحين، وهذا ما يجسد مثالًا يُحتذى به في التعاون بين الأديان في المناطق المستقطبة. ويُظهر استبيان للنازحين الشيشانيين من المستفيدين من هذا التعاون الأثرَ الإيجابي لهذه الشراكة، وجاء فيه:

«أعتقد أن ذلك أمر عظيم؛ لأن بعض الناس يحاولون حاليًّا زرع بذور الشقاق بين ممثلي هذه الأديان، وبالعمل معًا يَسَعُهُمْ إثبات أن هذه المحاولات ليست صحيحة على الإطلاق»

«يُظهر ذلك أن ليس من المهم الدين الذي ندين به، فهناك مسئولية ملقاة على عاتقنا جميعًا تجاه الفئات المستضعَفة في مجتمعنا، وعلاوة على ذلك فنحن مستعدون وراغبون في العمل معًا لأجل غاية مشتركة».

ويدل مثلُ هذين التعليقين من لاجئين شيشانيين من مخيم إلينا بإنغوشيا، ٢٠٠٤ على قيمة التعاون بين الأديان على يد المنظمات الدينية. وبهذه الطريقة يكون بوسع منظمة الإغاثة الإسلامية الاستفادة من وضعها منظمةً دينيةً إسلاميةً للإسهام في جهود نشر السلام في حالات ما بعد الصراع.

حاولت منظمة الإغاثة الإسلامية الاستفادة من قيمة وضعها باعتبارها منظمةً دينيةً إسلاميةً لدعم جهود عودة اللاجئين في المناطق التي مزقتها الحرب. فعلى سبيل المثال، في أعقاب الصراع البوسني، أنشأت المنظمة مكاتب عمل ميدانية في مدينة «زفورنيك» الشرقية التي خضعت لـ«التطهير العرقي» لسكانها (المسلمين). كان كثير من البوسنيين خائفين من العودة إلى المدينة عقب توقيع اتفاقية سلام «دايتون» عام ١٩٩٥ ووقف الأعمال العدائية المفتوحة؛ نظرًا لخطورة ما عانوه من الترهيب بل وحتى الاعتداء الجسدي. وقد ضربت المنظمة مثلًا لإمكانية العودة والتعاون بين الأديان سواء بسواء؛ بافتتاح مكتب ميداني في مركز المدينة وتجنيد عناصر من الصرب والمسلمين. وبالإضافة إلى ذلك، فقد ساهمت المنظمة في بناء الثقة

تدريجيًّا بين المسلمين والصرب عبر مساعدة كلا المجتمعين بالمعونات وجهود إعادة التأهيل. واكتسب كثير من المسلمين الخائفين من العودة إلى «زفورنيك» ثقةً العودة إلى منازلهم من خلال رؤيتهم أن عمل المنظمة الإسلامية لا يعوقه عائق في المنطقة تقريبًا.

صعوبات كونها منظمةً دينيةً إسلاميةً:

في القليل من الحالات، يصعب تعريف المنظمة بوصفها «منظمةً إسلاميةً» من خلال عمل المنظمة، وكثيرًا ما يكون هناك فشل في التفرقة بين أنشطة منظمات المساعدة الإنسانية ذات الهوية الدينية وغيرها من الهيئات الدينية التي قد يكون لها أغراض سياسية. ربما تؤدي مثل هذه الشكوك إلى إحجام السلطات الحكومية عن منح التأشيرات وتأخير نقل إمدادات الإغاثة، وإعادة التحقيقات في الأنشطة التنظيمية والتضييق على العاملين في المنظمة. ففي إنغوشيا على سبيل المثال، حيث عملت المنظمة مع نازحين شيشان، نظرت السلطات الروسية المحلية إلى المنظمة بعين الشك. وبينما تواجه أية منظمة غير حكومية مشكلات في تلك المناطق، تواجه منظمة الإغاثة الإسلامية قيودًا أقوى مما تواجهه أية منظمة علمانية على الأرجح؛ بسبب توصيفها منظمةً إسلاميةً[١٤]. ومع ذلك، أصبحت مثل هذه الحالات نادرة الحدوث وتزداد ندرتها نظرًا لأن اسم المنظمة الإسلامية للإغاثة وشعارها وسمعتها أصبحوا أكثر رسوخًا وتمتَّعوا باعتراف أقوى.

وفي السودان كذلك، بعد أن تشرد الملايين بسبب الصراع في دارفور، زاد كونها منظمةً إسلاميةً من تعقيد جهودها في تقديم المساعدة للمشرَّدين (بصرف النظر عن حقيقة أن أطراف الصراع كلها من المسلمين). وتحتضن المنظمات غير الحكومية الأخرى والمنظمات الدينية المسيحية هذه الشكوك بشكل خاص في المنطقة، ومن ضمنها القول بأن للمنظمة صلات مع الحكومة أو مع الجنجاويد (ميليشيات مسلحة متهمة بارتكاب مجازر في دارفور منذ عام ٢٠٠٣). وفي سبيل دحض الافتراض الخاطئ بأن المنظمة منظمة «عربية» ومن ثم فهي على صلة بالحكومة، فقد فَضَّل مكتب المنظمة بالسودان تعيين فريق عمل من موظفين غير عرب من دول مثل: باكستان والبوسنة والهرسك. وقد بذلت المنظمة جهدًا أكبر في العمل بالمناطق الحساسة مثل إقليمَي دارفور وإنغوشيا؛ لإثبات أنها ليست منظمة حزبية أو دعوية، وأنها ليست مهتمة سوى بتقديم المساعدات الإنسانية إلى المجتمعات بصرف النظر عن التوجهات الدينية لتلك المجتمعات.

ومن الجدير بالملاحظة كذلك أن منظمة الإغاثة الإسلامية لا تواجه شكوكًا من المنظمات الدينية غير المسلمة وحسب، بل تواجه أحيانًا مشكلات في المناطق المنكوبة بالصراعات حيث توجد فرق مسلمة

١٤ ومن ناحية أخرى، فكونها منظمةً دينيةً إسلاميةً قد يكون ميزة عند العمل في مناطق ذات حكومات مسلمة، فمثلًا مُنِحَت التأشيرات وتصاريح الدخول بيُسْرٍ نسبيٍّ من السلطات في دارفور، بينما يتأخر توثيق أوراق المنظمات الغربية العلمانية أو المنظمات غير الحكومية أيامًا وربما أسابيع. وتستشعر السلطات المحلية في البلدان الإسلامية بالارتياح غالبًا لطلب المساعدة من المنظمة.

متعددة. ففي أفغانستان على سبيل المثال، كانت المنظمة قادرة على تقديم المساعدات بيُسْرٍ نسبيٍّ في ظل حكم نظام طالبان، ولكن ما إن سقطت طالبان وحل التحالف الشمالي محل النظام كان على المنظمة إعادة التفكير في إستراتيجيتها لمواصلة عملها في المنطقة؛ حيث اختارت المنظمة إعفاء أفراد من فريق عملها ذوي خلفيات باكستانية أو عربية من العمل؛ كي تؤكد على أن طبيعة المنظمة غير حزبية، وتهدئ من أية مخاوف تتعلق بصلتها بطالبان.

وبصفتها منظمةً دينيةً إسلاميةً، فإنها قادرة على الاستفادة من وضعها وأن تكون أكثر فعالية من حيث العمل على القضايا الحساسة للاجئين والنازحين في المناطق التي كانت حكرًا على المنظمات العلمانية والمنظمات غير الحكومية الغربية. وقد تستعين المنظمة بوضعها منظمةً إسلاميةً موثوقةً لتقديم تعليم ذي حساسية ثقافية بين مجتمعات اللاجئين المسلمين، وتقديم الخدمات فيما يخص قضايا حماية المرأة والطفل ومصابي فيروس نقص المناعة المكتسبة (الإيدز) والصحة الإنجابية، بدلًا من التركيز على توصيل الخدمات التي لا تثير جدلًا وحسب. فالمنظمة قادرة على الإسهام إسهامًا هامًّا في معالجة الشواغل الإنمائية الحساسة بين اللاجئين المسلمين[١٥].

خاتمة:

أظهرت الحالات أن كون المنظمة دينيةً إسلاميةً له أثر هامٌّ في قدرة منظمة الإغاثة الإسلامية على العمل مع اللاجئين. وهذا صحيح في كلا البيئتين المسلمة وغير المسلمة. وعامة فقد وجدت المنظمة أن كونها منظمةً دينيةً مسلمةً سيزيد من مستوى الثقة والتقبل لها لدى اللاجئين والنازحين المسلمين. وغالبًا ما تكون المنظمة قادرة على بناء صلات أعمق مع المجتمعات المسلمة؛ بفضل صورتها منظمةً إسلاميةً، وكذلك بجهودها لتلبية الاحتياجات الروحية للمجتمعات المسلمة. ولكن في بعض الحالات عَقَّدَ كونها منظمةً إسلاميةً عملَها الإغاثيَّ كما حدث في السودان وأفغانستان وإنغوشيا. وهكذا فتأثير الدين بالنسبة إلى منظمة الإغاثة الإسلامية قد تفاوت تبعًا لسياق العمل.

وعلاوة على ذلك، فبكونها منظمة دينية مسلمة ذات سمعة حسنة متنامية قد خطت منظمة الإغاثة الإسلامية خطى واسعة هامة عبر شركاتها مع منظمات علمانية غير حكومية وكذلك منظمات دينية غير مسلمة، وكانت مثل هذه الشراكات مفيدة للطرفين بوجه عام، ومكنت المنظمات غير المسلمة من كسب إمكانية الوصول إلى المجتمعات المسلمة وكسب ثقتها؛ مما وسع نطاق توصيلها للخدمات. كما أسهمت الشراكات بين الأديان في مناطق مثل البوسنة والهرسك وإنغوشيا في جهود إعادة توطين اللاجئين وبناء السلام في المجتمعات التي تشهد استقطابًا عرقيًّا.

---

١٥ ويرجع السبب جزئيًّا وراء عدم رغبتها في التدخل في مثل هذه الأمور إلى أن كثيرًا من المتبرعين للمنظمة رافضين تمويل مثل هذه البرامج. وعلاوة على ذلك، فالمنظمة لم تشعرْ بارتياح في مثل هذه الأنشطة لما تثيره من جدل. ورغم ذلك فقد تغير الأمر بعد استشارة المنظمة فقهاءَ مسلمينَ في قضايا حساسة مثل الإيدز والصحة الإنجابية.

يُظهر عمل المنظمات الدينية مثل منظمة الإغاثة الإسلامية أهميةَ الدين في جهود التنمية. وتشير الأدلة الواردة في هذه الدراسة إلى أهمية هذه المنظمات في توفير الخدمات للاجئين والنازحين في مختلف بقاع العالم. وقد استطاعت المنظمة بفضل كونها منظمةً مسلمةً كسبَ الثقة بين المجتمعات المسلمة في مناطق تطغى عليها الحساسيات العرقية والدينية. وفي السياق العالمي، حيث يُنظر إلى المنظمات المسلمة نظرة يملؤها الشك، أظهرت تجربة منظمة الإغاثة الإسلامية إمكانيات الاستفادة الإيجابية من قيمة الإيمان لخدمة المجتمعات المحتاجة على نحو أكثر فعالية.

صادر عام ٢٠٢٤ عن مركز أركان للدراسات والأبحاث والنشر
الآراء الواردة بالدراسة تعبر عن وجهة نظر كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر المركز، ويمنع نقل هذه الدراسة أو نسخها أو ترجمتها أو أي جزء منها إلا بإذن مسبق من المركز
info@arkan-srp.com

أركـان للدراسات والأبحاث والنشر

Arkan for Studies Research and Publishing